PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

259872

D'Inān

مواقف حاسمة
في تاريخ الإسلام

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثالثة

[نقحت وضمت اليها بحوث جديدة]

بدالحكيم حسين عندي

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع فؤاد الأول (سابقا شارع الداون)

١٩٥٢

(Arab)
D.S38
.3
.I52
1952

(RECAP)

الطبعـــة الثالثـــة

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

الحقوق كلها محفوظة

Copyright, Cairo; 1952

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حينما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عاماً ، كانت المواقف الحاسمة بين الشرق والغرب ، والاسلام والنصرانية ، التى جعلتها موضوعاً له ، تبدو محدودة فى عددها ونوعها . فلما ظهرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٣٤ ، محتوية على بحوث وتحقيقات جديدة فى هذا الميدان ، كانت هذه الفكرة تبدو أشد قوة وضوحاً . ثم أتيحت لى الفرصة بعد ذلك لكى أضيف الى الكتاب مادة جديدة تعرض الفكرة فى أوضح وأسطع صورها .

ومنذ بضعة أعوام ، نشرت بمدينة لاهور عاصمة الباكستان الثقافية ترجمة انجليزية لهذا الكتاب بعنوان Decisive Moments in the History of Islam ؛ وقد صدرت من هذه الترجمة الى الآن ثلاث طبعات ، ويوشك أن تصدر الرابعة (١). وتحتوى الطبعة الانجليزية الثالثة على عدة فصول هامة من المواقف الحاسمة خلت منها الطبعة العربية الثانية ، فكان ذلك الى جانب نفاد هذه الطبعة منذ مدة ، مما حدا بنا الى المبادرة باخراج هذه الطبعة العربية الجديدة التى يسرنا أن نقدمها اليوم الى قراء العربية مستكملة لهذه الفصول ، ومحتوية فوق ذلك على إضافات جديدة أخرى .

وكتاب « مواقف حاسمة » فى طبعته الجديدة يكاد مما أدخل عليه من إضافة وتعديل وتنقيح ، يكوّن مؤلفاً جديداً . فأما المواد الاضافية فانها تشتمل على أربعة فصول جديدة مستقلة هى : موقعة ملازكرد ، موقعة المنصورة ، موقعة عين جالوت ، فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية ؛ وأضيفت الى فصل « الدبلوماسية فى

(١) قام بنشر النسخة الانجليزية السيد محمد أشرف ناشر الكتب بلاهور . وظهرت الطبعة الأولى منها فى سنة ١٩٤١ ، والثانية فى سنة ١٩٤٣ ، والثالثة فى سنة ١٩٤٩ .

الاسلام » ثلاثة أقسام كبيرة، هى السفارات النبوية، والسفارات الخلافية والسلطانية، ومصر محور الدبلوماسية الاسلامية فى العصور الوسطى ؛ وهذه تكاد بموضوعها وحجمها تكون فصولا مستقلة . هذا الى ما حدث من إضافات كثيرة للفصول الثالث والخامس والسادس والسابع والحادى والعشرين ، ومن تنقيح وتعديل لفقرات كثيرة من النص الأصلى والهوامش الايضاحية .

وتزيد هذه الطبعة العربية الثالثة على زميلتها الانجليزية بما تحتويه بنوع خاص من الأقسام الجديدة لفصل الدبلوماسية ، ومن بحث جديد كان يجب أن يتخذ مكانه فى هذا الكتاب منذ بعيد ، هو « فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية » وهو بحث أملت بكتابته مناسبة تاريخية يوشك أن تحل ، وهى الذكرى الخمسمائة لهذا الحادث العظيم.

وأما فكرة الكتاب الأصلية ، وهى التى يعبر عنها عنوانه فقد لبثت كما هى ، بل لقد زادتها هذه الإضافات والتعديلات الكثيرة ، قوة ووضوحاً ؛ فهذه المجموعة من الوقائع والأحداث الخطيرة الفاصلة فى سير التاريخ الاسلامى ، تلقى أعظم ضوء على ذلك الصراع الخالد ، بين الشرق والغرب ، والاسلام والنصرانية ؛ وفيها يرى القارىء كيف لبثت الفكرة الصليبية قروناً محور هذا الصراع ، وكيف أنها كانت تشتد وتضطرم كلما بدرت فورة إسلامية جديدة من القوة والاحياء ، وكيف أنها لم تعرف قط سبيلا الى المهادنة حتى بعد أن نبذت الخلافة فكرتها القديمة فى اجتياح الغرب واخضاع النصرانية لصولة الاسلام ، واكتفت الأمم الاسلامية بأن تسير فى سبيل التوسع الاقليمى السياسى . والواقع أن الفكرة الصليبية لبثت حية فى الغرب حتى بعد أن خبت تباعاً قوى الاسلام فى المشرق ، وانتهت دولة الاسلام فى الأندلس ؛ وكان مبعثها عندئذ هو خطر الفتوح العثمانية التى انسابت الى قلب أوربا . ولما خبت هذه القوة الاسلامية الغازية الأخيرة أمام الغرب المتحد بعد صراع طويل الأمد ، استحالت الفكرة الصليبية الى ثوبها السياسى الجديد ، وهو ثوب السياسة الاستعمارية التى ترمى الى فرض سلطان الغرب على الأمم الاسلامية والشرقية بوجه عام ، والتربص بكل فورة أو نهضة جديدة يجيش بها الاسلام أو المشرق .

لقد كان لقاء الاسلام والنصرانية فى ميادين الحرب أو السلام ، دائماً موطن الفصل أو التقارب بينهما ، وكانت له فى مصايرها أعمق الآثار . فأما فى ميدان الحرب

فقد كان لنصر هذا الفريق إذ ذاك ، أو هزيمته ، آثاره المباشرة والحاسمة أحياناً بالنسبة للفريق الآخر ؛ وأما فى ميدان السلم ، فقد كانت للمدنية الاسلامية ، التى سطعت فى المشرق والأندلس خلال العصور الوسطى ، آثارها الواضحة فى سير الحضارة الغربية ؛ ومن هذا الميدان الخصب استقينا فكرة الكتاب ومعظم موضوعاته ، ومنه اخترنا بالأخص هذه المجموعة من المواقع والمواقف الحاسمة التى نقدمها ، والتى يبدو خطرها جلياً ، فى سير تاريخ الشرق والغرب ، والاسلام والنصرانية .

وقد عنيت بالأخص بالافاضة فى ثلاثة من هذه المواطن الحاسمة ، هى حصار العرب لقسطنطينية ، وموقعة بلاط الشهداء ، وفتح الترك العثمانيين لقسطنطينية ؛ والأول والثانى هما بلا ريب أعظم الحوادث والمواقع الحاسمة فى لقاء الاسلام والنصرانية ؛ فقد كان اخفاق العرب تحت أسوار قسطنطينية ، رداً لسيل الاسلام الفتىّ عن اقتحام أوربا من الشرق ، وحياة جديدة للدولة الرومانية الشرقية امتدت الى قرون ؛ وكان ارتداد العرب أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ، رداً لسيل الاسلام عن افتتاح أمم الغرب والشمال ، ومختتم ظفره فى الغرب ، وكان موطن الخلاص للنصرانيـــة ، ومهاد البعث والحياة للأمم الأوربية ؛ وأما الحادث الثالث وهو فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية ، فالرغم من أنه لم يكن من جانب الفاتحين منطوياً على مُثُل الفكرة الاسلامية الأولى ، وغايتها البعيدة المدى ، فى نشر دعوة الاسلام بين أمم الغرب ، فقد كان مع ذلك بالنسبة للغرب وأوربا النصرانية ، صورة جديدة للخطر الاسلامى ، وعاملا فى بعث الفكرة الصليبية ، وجمع كلمة الدول الأوربية على مقاومة هذه الفورة الاسلامية الجديدة ، وما زالت أوربا النصرانية على سياستها حتى حُطمت الدولة العثمانية ، وغاضت قوتها وخطرها .

وفى كثير من الأحداث والمواطن الأخرى ، تبدو هذه الفكرة الحاسمة فى مصاير الاسلام والنصرانية قوية واضحة ؛ ففى موقعة الزلاقة مثلا لم يكن ظفر المسلمين ظفراً لاسبانيا المسلمة فقط ، وإنما كان هزيمة الاسلام كله للنصرانية كلها ، وكان إيذاناً باضطرام الحروب الصليبية ؛ وما كانت الحروب الصليبية ذاتها الا طوراً جديداً عنيفاً من أطوار ذلك الصراع الخالد بين الشرق والغرب ، والاسلام والنصرانية ؛ وما كان مصرع الأندلس والحضارة الأندلسية حادثاً اسبانيا فقط ، بل كان محنة

إسلامية عامـــة ؛ ولنتصور مثلا أن المسلمين ظفروا بفتح رومة، ولم يخفقوا تحت أسوارها ، فأى مصير كان يقدر للنصرانية يومئذ ؟ أو أن الجيوش الصليبية استطاعت أن تقضى على مصر ، وأن تستقر فى المشرق ، فأى مصير كان يقدر للإسلام والأمم الاسلامية يومئذ ؟

تلك هى الفكرة التى حرصنا على إبرازها باختيار هذه المواقف الحاسمة فى لقاء الشرق والغرب ، والاسلام والنصرانية . ولا ريب أننا لم نستوعب فى هذا الاختيار كل ما يقدمه لنا التاريخ الاسلامى فى هـــذا الموضوع ، فهنالك مواطن ومواقع كثيرة أخرى كانت لها نفس الآثار الحاسمة ، وقد تسنح لنا فرصة لتناول طائفة أخرى منها .

وقـــد ذيلت الكتاب بثبت لأهم المراجع التى اعتمدت عليها وانتفعت بها من شرقية وغربية ، وفهرس للأعلام التاريخية والجغرافية التى وردت خلال الفصول مع مقابلها الافرنجى ، ثم بفهرس أبجدى عام ليكون مرشداً لكل ما تناوله البحث .

القاهرة فى فبراير سنة ١٩٥٢ — محمد عبد الله عنان

البحر الأسود
بلاد القوقاز
بحر خوارزم (آرال)
تركستان
ما وراء النهر
بخارى
سمرقند
بحر الخزر (قزوين)
قسطنطينية
تفليس
بلاد الكرج
آسيا الصغرى
انقره
بورصه
قونيه
قيصاريه
ارمينيه
ارضروم
ملطيه
زنطره
ازربيجان
اردبيل
تبريز
خراسان
طوس
نيسابور
طهران
الرى
همذان
قوهستان
اصفهان
بلاد الفرس
كرمان
خوزستان
الاهواز
شيراز
البصره
بغداد
الانبار
عين التمر
كربلاء
الفرات
دجله
الجزيره
الرها
حران
الرقه
حلب
انطاكيه
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
حماه
حمص
تدمر
الشام
دمشق
طرابلس
بيروت
عكا
بيت المقدس
عسقلان
غزه
دمياط
الاسكندريه
المنصوره
القاهره
مصر
نهر النيل
البحر الأحمر (القلزم)
بلاد العرب
الخليج الفارسى
الشرق الاسلامى
فى العصور الوسطى

الفصل الأول

وثبة العرب

فى التاريخ حوادث ومسائل تبدو خارقة ، تكاد تقصر عن شرحها وتعليلها الظواهر والقوانين الاجتماعية . ووثبة العرب من قفار مكة الى غزو العالم القديم ، إحدى هذه الحوادث والمسائل الخارقة . فمن قفار الجزيرة ، خرج العرب فى قلة من العدد ، وفى نقص من الأهبة ، لغزو دولتين من أعظم دول التاريخ منعة وضخامة وحضارة ، هما الدولة الرومانية والدولة الفارسية . ولم تقف هذه القبائل التى لم تخرج بعد من غمر البداوة ، أمام هيبة هاتين الدولتين العظيمتين اللتين اقتسمتا العالم القديم ، ولم يردها ما تتمتعان به من كفاية حربية مؤثلة ، وجيوش قوية مظفرة ، وموارد زاخرة لا تنضب . وكان الظفر حليف هذه القبائل فى كل فتح وكل موقعة . ولم يمض نصف قرن حتى استطاعت أن تبنى على أنقاض ما هدمت من صروح الدولتين العظيمتين ، دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ : تلك معضلة تاريخية يصعب فهمها وشرحها .

بيد أن فى ظروف العصر الذى حدثت فيه وثبة العرب الأولى ، واضطرام الصراع بين دولة الخلفاء الناشئة الفتية ، وبين فارس وقسطنطينية ، ما يُقرب فهم هذه المعضلة . وفى وسعنا أن نرجع وثبة العرب بالعالم القديم ، وما أصابوا من فتوح عظيمة ، وظفر باهر ، الى عاملين أساسيين : أولهما يتعلق بتأثير الإسلام فى نفوس تلك القبائل البدوية التى خرجت من الصحراء الى الغزو فى طلب السلطان والثروة والملك ، ويتعلق الثانى بظروف الأمم التى قضت الحوادث أن تكون مهاداً لفتوح العرب .

فأما الإسلام فآثاره فى وثبة العرب قوية بارزة . طلع الدين الجديد على قبائل مشردة مشتتة متنافرة متناجزة ، تعيث بعقليتها التقاليد الوثنية ، وتمزقها الحروب الأهلية

فألف بينها، وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة . وكانت خواص العصر الذى ظهر فيه النبى العربى ، مما يمهد الى الدعوة الجديدة ويقوى ذيوعها وتقدمها . كان عصر انحطاط عقلى واجتماعى، هوت فيه الطبقات الحاكمة والممتازة فى المجتمعات المتمدنة ، الى أشد ضروب الفساد والانحلال ؛ وكانت الشعوب تموج سأماً وسخطاً من أحوال العصر ونظمه ، وتضطرم أملا ورغبة فى استبدالها بنظم أمثل وأرفع ؛ وكانت بوادر من هذه الريح العامة تهب فى بلاد العرب . يقول جيبون : « كان مولد محمد لحسن الطالع فى أشد العصور انحطاطاً بالنسبة للفرس والرومان وبربر أوربا »[١] وكان العرب يشعرون بالحاجة الى دين أمتن فى أصوله وأنقى فى مبادئه وتعاليمه من الوثنية ومذاهبها المختلفة ، بل كانت شعوب فارس والشام ومصر تشعر بمثل هذه الحاجة الى مبادئ وتعاليم روحية جديدة ، بعد أن عفت الزرادشتية والمانوية[٢] ، وجمدت اليهودية ووقف تقدمها منذ بعيد ، وغدت النصرانية مثار الخلاف والجدل المستفيض ، وانقسمت إلى طوائف ، تسوم القوية ، الضعيفة منها ، مر الظلم والاضطهاد .

كانت بلاد العرب خلال هذه العواصف القوية ، التى تهب على العالم القديم ، فتهزه الى الأعماق ، أوفر هدوءاً وحرية ، تفر إليها الطوائف المضطهدة ، المهددة فى عقائدها وشعائرها . وكانت بذلك أصلح مهاد لنشأة هذه المثل العليا التى يتطلع إليها العالم القديم ، وتتطلع إليها القبائل العربية . يقول فون شليجل : « لم يفتح العرب فاتح قط ، وكانوا مدى تاريخهم أحراراً » ثم يقول : « فهذه الحرية الأثيلة ، والاستقلال التام عن كل فاتح وطاغية ، كان لهما شأن كبير فى الارتفاع بالعرب الى شعور قوى بالنفس »[٣] . وفى ذلك العصر الذى كانت تضطرم الجزيرة فيه بهذه الأمانى والمثل الرفيعة ، ويحفزها شغف التحرر من شوائب الحياة القديمة ، ظهر النبى العربى ، وظهر الإسلام .

---

(١) Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire. Ch. L.

(٢) وهى مذهب زرادشت مؤسس دين الفرس القديم (نحو القرن الثامن قبل الميلاد) . وقد لبثت الزرادشتية دين الفرس القومى منذ أواسط القرن السادس قبل الميلاد إلى أواسط القرن السابع بعده . والمانوية مذهب مانى الفارسى أيضاً (القرن الثالث الميلادى) وقد ذاع رغم مطاردته فى فارس وما حولها من بلاد العرب وكذا مصر .

(٣) Fr. von Schlegel: Philosophie der Geschichte. Kap. XII.

جاء الإسلام دستوراً جامعاً لحياة جديدة ، تمتاز بنقائها ومتانة أسسها الأخلاقية والاجتماعية . وكان للإسلام ، من ناحيته التشريعية فى تنظيم هذا المجتمع المشتت المتنافر ، أعظم الأثر . فقد خلقت الشريعة الجديدة ، من القبائل العربية ، مجتمعاً منتظماً متماسكاً ، واستبدلت حكم العرف والأهواء ، بقوانين حكيمة تعبر أقوى تعبير عن أمثل الخواص والمشاعر البشرية . ولا ريب أن الشرائع التى تحكم الجانب المعنوى من الحياة ، أشد ما تكون أثراً ، وأعظم ما تكون فوزاً ، إذا استطاعت فى أحكامها أن تقود مناحى التفكير والعواطف ، فى المجتمع الذى سنت له . وقد كان هذا فوز الشريعة الإسلامية ، وهذا ما جعلها مدى القرون دستوراً سياسياً واجتماعياً لمعظم الدول والمجتمعات الإسلامية ، بل هذا هو السر فى أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية الحديثة ، ما زالت فى عصرنا تحتكم راضية مغتبطة ، الى كثير من الأحكام والنصوص التى وضعت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً . يقول لنا جيبون فى إعجاب ودهشة : « إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره ، فان نفس الطابع النقى الكامل ، الذى كان له فى مكة والمدينة ، ما زالت تجيش به صدور المسلمين فى الهند وإفريقية وتركيا »(١) ويقول فنلى : « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام دينى سياسى ، ما زال يحكم الملايين من البشر ، من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية ، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة ، فى كل نواحى الهيكل الاجتماعى ، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والإسكندر »(٢) .

هذه عوامل إيجابية فى أثر الإسلام فى وثبة العرب . ويوجد ثمة عامل سلبى يرجع الى مشاعر الشعوب التى كانت مهاداً أولى لانتشار الإسلام . ففى فارس ، وفى أقطار الدولة الرومانية ، كان الاضطهاد الدينى سياسة مقررة للدولة . وكان هذا الاضطهاد يلحق أبناء الأديان والمذاهب المختلفة ، حتى أبناء الدين أو المذهب الذى تقره الدولة إذا لم يعتنقوا هذا الدين أو المذهب بصورته الرسمية التى تريدها

---

(١) Gibbon: ibid; Ch. L.

(٢) Finlay: Greece under the Romans. Ch. V - 2.

الدولة . وقد جاء الإسلام بنعمة التسامح ، ينادى بحرية الاعتقاد والضمائر ؛ وحرص الغزاة المسلمون على تطبيق هذا المبدأ الى حدود لا بأس بها ، فى عصر كان الإسلام فيه فتياً ، وكانت جذوة الحماسة الدينية تضطرم فى نفوس الخاصة والعامة معاً ؛ فكانت هذه السياسة الحكيمة كما سنرى ، من أهم العوامل فى انتشار الفتوح الإسلامية واكتساب ولاء الشعوب المفتوحة .

— ٢ —

فى تلك الصورة المتباينة التى يقدمها إلينا التاريخ وقت ظهور الإسلام ، عن انحلال الدولتين الفارسية والرومانية ، وانحطاط العالم القديم ؛ ثم عن سذاجة المجتمع العربى ، وتمتعه بألوان من الحماسة والفتوة والنقاء المعنوى ، نستطيع أن نلمس كثيراً من عوامل ظفر الإسلام والعرب .

ويرسم لنا جيبون هذه الصورة فى قوله : « وبينما كانت الدولة (الرومانية) قد أنهكتها الحروب الفارسية ، والكنيسة قد شغلها جدل الطوائف ، نهض محمد والسيف فى يد ، والقرآن فى الأخرى ، فأقام عرشه على أنقاض النصرانية وأنقاض رومة . إن فى عبقرية النبى العربى ، وفى خلال أمته ، وفى روح دينه ، أسباب انحلال الدولة الشرقية وسقوطها ؛ وإن أبصارنا لتتجه دهشة الى ثورة من أعظم الثورات التى طبعت أمم الأرض بطابع خالد »(١) . ويرسمها فون شليجل فى قوله : « فاذا قارنت بانحطاط الرومان ، وفساد البلاط البيزنطى ، ونعومة الأشوريين ، وتهتك المدن الأسيوية الكبرى ؛ ذلك الخلق العربى البدوى الذى حفظ نقاوه فى ظل الحرية العريقة ، فانه يبدو بلا ريب أقل فساداً ، وأمتن خلالا وأكرم عنصراً . ولا ريب أن العرب كانوا يتمتعون فى عصور تاريخهم الأولى ، بعزم معنوى عظيم فى الإرادة وقوة فى الخلق ؛ بل إنك لتلمح هذه الخلال فيهم ، حتى فى عصور انحلالهم »(٢) .

بينما كانت الجزيرة العربية تضطرم بهذه الحياة الجديدة القوية ، كانت الدولتان اللتان تسيطران على العالم القديم ، وتشرفان بحدودهما وأملاكهما على أطراف الجزيرة ، وهما الدولتان الفارسية والرومانية ، تجوزان مرحلة الإنحلال الاجتماعى

(١) Gibbon: ibid; Ch. L.

(٢) Fr. von Schlegel : ibid; Kap. XII.

والسياسى . فى فارس كان حكم الطغيان يعصف بجميع طبقات المجتمع ، ويخنق جميع الحريات ؛ وكان هذا الحكم ذاته يضطرب فوق بركان من الدسائس والمؤامرات والمطامع ؛ وكانت حماسة الفرس الحربية التى دفعت جيوشهم من قبل الى فاصية الأناضول ، قد خبت منذ بعيد ، وغاصت فى حياة الترف والدعة ، واضمحلت سلطة العرش القوية ، وعجزت عن ضبط الأطراف البعيدة ، وسادت الفوضى فى أنحاء الدولة ، وبث حكم العسف والهوى ، السخط الى جميع طبقات المجتمع . وكانت الدولة الرومانية قد شاخت وتقاسمت القبائل البربرية نصفها الغربى . ولم يطل بالدولة الشرقية عصر الأحياء الذى افتتحه الامبراطور يوستنيان باصلاحاته وفتوحاته فى أوائل القرن السادس ، ولم تلبث أن سرت إليها عوامل الإنحلال والتمزق . وكانت النظم والقوانين الرومانية أقوى عامل فى هذا الإنحلال . ذلك أنها كانت تمعن فى التفريق بين الطبقات والأفراد ، وتؤثر الرومانيين بجميع الحقوق والمناصب والامتيازات ، وتحرم منها غير الرومانيين من رعايا الدولة . وكان من أثر ذلك أن قُسم المجتمع الرومانى الى طبقتين : السادة الحاكمون وهم الرومانيون (الروم)[1] والرعايا المحكومون ؛ وهؤلاء وهم أكثرية السكان يحرمون من جميع الحقوق والامتيازات ويسامون الخسف ولاسيما فى الولايات النائية ، البعيدة عن رقابة السلطة المركزية ، ويرهقون بالضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكانوا لذلك يمقتون النير الرومانى ، ويتوقون الى الخلاص منه . وكانت الجيوش الرومانية أيضاً فى العصر الذى نتحدث عنه فقد فقدت صبغتها القومية ، وانتظم فيها المرتزقة وأبناء البلاد المفتوحة ، الذين اضطرت الدولة أن تلجأ إليهم فى حمايتها وتأييد سلطانها فى شاسع أقطارها ؛ فكان لهذا المزج بين العناصر الرومانية الخالصة ، والعناصر الأجنبية ، أثره فى انحلال عصبية الجيش وهى قوام الدولة ، حيث غاضت منه الروح القومية ، التى جعلت منه فيما سلف رعب العالم القديم ، ودفعته الى آكام إيقوسيا وسواحل البلطيق .

---

(١) تطلق الرواية الاسلامية كلمة «الروم» على رعايا الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية فنراها فى حوادث فتح الشام ومصر وآسيا الصغرى وحصار قسطنطينية مستعملة بهذا المعنى . وأحياناً تستعمل بطريق أعم فتطلق على جميع سكان الأمم الواقعة شمالى البحر الأبيض . وقد تطلق فى الروايات الاسلامية الأولى على جميع الأمم النصرانية (ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧) . على أن الاستعمال الأول هو الأغلب والأصح .

على أن ظفر العرب الحربى يرجع من بعض الوجوه إلى أسباب عرضية ، لا علاقة لها بما كانوا يتمتعون به من الخواص والمزايا الحربية . والواقع أن جيوش الصحراء الناشئة لم تكن لتضارع الجيوش الرومانية والفارسية المنظمة فى الكفاية ، أو تناهضها فى الأهبة ؛ على أن قسما كبيراً من الجيوش العربية تلقى تجاربه الحربية فى الحروب الفارسية ، وكانت الحماسة الدينية تقوم لدى الفتية الأحداث مقام النظام والكفاية ، بل كانت هذه الحماسة تبز شجاعة الجيوش الرومانية وتطغى عليها. وكانت الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة ، خاصة واضحة فى الصفوف العربية ، وكانت تعوضها عما يعتورها من نقص فى الأهبة والخبرة . كذا كانت المفاجأة والسرعة من خواص الفتوحات العربية الأولى ومن عوامل نجاحها . ذلك لأن الحماسة مهما بلغت من الاضطرام ، لاتثبت فى حرب طويلة الأمد ، ولأن النظام والكفاية ينتهيان غالباً بالفوز متى زال أثر المفاجأة والصدمة الأولى . على أن العرب استطاعوا فى معظم فتوحاتهم ، أن يفوزوا سريعاً باجتناء الثمرة المنشودة ، وتثبيت أقدامهم فى الأرض المفتوحة ، بين شعوب تمزقها الخلافات الدينية ، ويضنيها الإرهاق والعسف ، وتحفزها البغضاء والسخط . فكانت الجيوش الرومانية تخسر فى معظم هذه المعارك ما كانت تتفوق به على العرب من مزايا النظام والدربة ، وما كانت تستطيع أن تستمده من عطف الشعوب المحكومة ، التى ضنت منذ بعيد بعطفها ومؤازرتها ، على حكومة تعانى من جورها وبطشها أمر ضروب الظلم والإرهاق .

وقد تلقت الدولة الرومانية وثبات العرب ، فى وقت أنضبت فيه الحروب الفارسية مواردها ، وأضنت قواها ، وحطمت نفوذ الحكومة المركزية ، وعاونت جماعة من الزعماء وحكام الولايات ، على تحدى السلطة المركزية والفوز بنصيب وافر من الاستقلال . وكانت العاطفة القومية قد غاضت منذ بعيد فى نفوس الزعماء والسادة ، فكانت المطامع والمصالح الشخصية وحدها ، تحركهم وتوجه سياستهم وأعمالهم ؛ وكانت غايتهم القصوى أن يدعموا استقلالهم المحلى بكل الوسائل . هذا الى أن رعايا الولايات أنفسهم كانوا يبغضون نير الدولة لأنها كانت لضعف سلطتها ، تسلمهم الى حكام وموظفين يسومونهم الخسف ، ويثقلون كاهلهم بمختلف الضرائب والمغارم . وكانت المطاردة الدينية من جهة أخرى ، تزيد فى هذا البغض

وتذكيه. ذلك لأن السياسة الرومانية كانت منذ القرن الرابع تحملها نزعة قوية من التعصب، وكانت تذهب فى الاضطهاد الدينى الى حدود مروعة . وكان أحبار مصر والشام، وأكابر النصارى الذين لا يعتنقون مذهب الدولة الرسمى ، يمقتون هذه السياسة ويقاومونها ، ويؤازرهم فى ذلك فريق كبير من الشعب. فلما ظهر الإسلام ، واندفع سيل الفتح العربى الى أراضى الدولة الرومانية ، ألفى مهاداً صالحة للظفر ؛ واستطاع البطارقة والزعماء ، واستطاعت الشعوب المحكومة أن تقدر اعتدال أولئك الغزاة الجدد، وقناعتهم فى فرض سلطانهم وأحكام دينهم .

والحقيقة أن العرب قدموا فى فتوحهم الأولى ، أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس ، واجتناب الكبائر والأساليب الوحشية ،التى كانت تسود صحف الحرب فى تلك العصور . فقارن مثلا وصية أبى بكر الى الجيش الذاهب لقتال المرتدين : « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ، ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة . ولاتذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ... الخ »[١] وحديث عمر عن العمال : « وإنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفسى بيده لأقصينه »[٢] ثم قارن مقدم عمر الى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه من أهلها نزولا على رغبتهم ، فى غير ما جلبة ولا موكب ، وكيف أنه نهر قادته حينما استقبلوه فى ركب فخم ، وكتب عهده وهو الظافر لأهل المدينة « بأنهم آمنون على دمائهم ، وأولادهم ونسائهم ، وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم » وكيف أنه أبى أن يصلى داخل كنيسة القمامة (قبر المسيح) خشية أن يحتج المسلمون فيما بعد بصلاته لأخذها[٣]. قارن ذلك وغيره مما تراه مسطوراً فى سير الفتوحات العربية الأولى ، بما كانت الجيوش الرومانية والفارسية ، تمعن فيه من صنوف السفك والتخريب والنهب ، فى غمار الحروب التى كانت تضطرم بينهما قبيل وثبة العرب ، وما كان يحف مقدم

---

(١) ابن خلدون ج ٢ (القسم الثانى) ص ٦٥

(٢) راجع ابن الجوزى ، سيرة عمر بن الخطاب (مصر) ص ٨٢

(٣) راجع ابن خلدون ج ٢ (١) ص ٢٢٥ و (٢) ص ١٠٦

القياصرة وعمالهم الى الأقاليم من ضروب الفخامة والبذخ ، والتسامى عن مخاطبة الشعب أو الإصغاء لظلاماته ؛ ثم قارن صرامة القواد العرب فى توقيع الأحكام ورفع الظلامات ، وحماية أهل البلاد المفتوحة من عسف الجند الظافرين ، بما كان ينزله عمال الإمبراطور وضباطه بهم من صنوف المظالم والمغارم دون وازع ولا عقوبة . هذه الفروق بين العدالة والجور ، والاعتدال والتطرف ، والعفة والشراهة ، والتسامح والإرهاق ، كانت من أقوى العوامل التى ذللت للعرب سبل الظفر والفتح ، وعاونتهم على اغتنام مسالمة الشعوب المفتوحة وتأييدها ، وبعثت الى هذه الشعوب نوعاً من الطمأنينة على مصايرها فى ظل سادتها الجدد ، وخففت لديها من وقع هذا التحول فى السيادة ، فلم يحط مقدم العرب بما يحيط مقدم العدو المغير عادة ، من ضروب التوجس والجزع والارتياع .

هذه السياسة الحكيمة التى رسمها المسلمون الأوائل لم تكن عامة ، ولم تكن طويلة الأمد . بيد أنها لبثت حيناً فى عصر انحلال وتطور ، تفيد من عوامل السخط واليأس التى تجيش بهـا مجتمعات مظلومة مهيضة ؛ وكان القليل من بوادرها المادية يشيد للعرب من العطف والتأييد قوى لا تغنمها الجيوش الجرارة ، ويمهد لهم سبلا من الوئام وحسن التفاهم لا يحققها عنف ولا بطش . ولنا من ذلك أمثلة لاحصر لها فى عصر الفتوحات الأولى ؛ فقد كان التسامح كما سنرى ، سياسة مقررة للخلافة ؛ وكان للنصرانى أو اليهودى ، ما للمسلم تقريباً من حرية الاعتقاد والشعائر ؛ وكانت الطوائف غير المسلمة تتمتع فى الغالب بالاحتكام الى شرائعها وتقاليدها الخاصة ؛ وكانت الضرائب تفرض على وجه العموم بالمساواة والاعتدال .

وأثر هذه السياسة واضح فى الظروف التى أحاطت بقيام السيادة الإسلامية فى البلاد المفتوحة ، فقد كانت تقوم فى الغالب عقب الفتح على أسس قوية ، لا توهنها عوامل السخط ، التى تجيش بها صدور المغلوبين عادة نحو الفاتح المغير ، وتجعل سلطانه محفوفاً بالمخاطر ، يقوم على بركان مستتر من البغضاء وظمأ الانتقام ، ورغبة التحرر ، وينفجر لأقل بادرة ولأول فرصة . لذلك استطاع العرب رغم اشتغالهم بالفتح ، أن يعنوا فى الوقت نفسه بتنظيم الأمم والمجتمعات الجديدة ، وأن يوثقوا عرى الوئام والتفاهم مع الشعوب المغلوبة ، وأن يخضعوها لنظم الإسلام وروحه فى مراحل

متفاوتة متعاقبة ، اتقاء لعواقب العنف والتسرع وما تؤذن به عادة من اضطرام الآثار والعوامل الرجعية ، وتقويضها لدعائم دولة قامت على أسس من العنف والإرهاق المستمر ، وتجاهلت كل العواطف والمشاعر والأمانى والحقوق .

تلك هى العوامل والظروف التى أذكت فورة الفتوح الإسلامية الأولى ، وذللت سبلها ، وجعلت من الشعوب المفتوحة شبه حلفاء للعرب ، يرون فى مقدمهم نوعاً من الخلاص وتحسين المصير . وفى مهاد هذه العوامل والظروف استطاع العرب أن يكتسحوا سواد العالم القديم شرقه وغربه ، وأن يقتحموا البحر من الغرب الى قلب الأمم النصرانية ، فى أقل من قرن . على أن فورة الظفر ما لبثت أن خبت ، مذ نعم العرب فى ظل الدولة المنظمة بالسلام والرخاء والدعة ؛ وعندئذ استطاعت الدولة الرومانية ، واستطاعت النصرانية ، أن تستكملا أهبة الدفاع والمقاومة ؛ وعندئذ لقى العرب هزيمتهم الحاسمة الأولى تحت أسوار قسطنطينية ، فأوصدت دونهم أبواب أوربا من جهة المشرق ؛ ثم لقوا هزيمتهم الثانية ، فى سهول تور (بلاط الشهداء) ، فكانت فصل الختام فى سير الفتح الإسلامى فى غرب أوروبا ؛ وارتد الإسلام عندئذ الى الجنوب حيث امتنع بالأندلس ؛ ومزقت الدولة الإسلامية الكبرى الى دول عديدة خصيمة متنافسة ، واختتم الى الأبد عصر قصير من الظفر الباهر .

الفصل الثاني

سياسة العرب الدينية

إذا كان خروج العرب من القفر، ومن غمر البداوة، الى حياة الظفر الباهر، وإقدامهم فى قلة من العدد ونقص فى الموارد والأهبة، على غزو دولتين من أعظم دول العالم القديم، وأشدها منعة، وأوفرها أهبة وموارد، هما الدولتان الفارسية والرومانية، وإقامتهم فى أقل من قرن دولة عظيمة شامخة فوق أنقاض ما هدموا من صروح العالم القديم وغنموا من أقطاره: إذا كان ذلك ظاهرة مدهشة من ظواهر التاريخ، فان ظفر الإسلام بالأديان القديمة، واجتياحه للشعوب المفتوحة بسرعة خارقة، ظاهرة من أغرب ظواهر التاريخ أيضاً. وإذا كان ظفر العرب يرجع من بعض الوجوه الى ظروف وعوامل خارجة عن إرادتهم وتدبيرهم، فكذلك يرجع ظفر الإسلام من بعض الوجوه الى ظروف الشعوب المفتوحة، والى أحوال المجتمعات الجديدة التى انضوت تحت لواء الإسلام، والى خواصها النفسية والاجتماعية.

ليس فى صحف الدعوة الإسلامية شىء من تلك السير والمطاردات الدموية التى اقترنت بظهور معظم الأديان القديمة، والتى نراها ماثلة بالأخص فى عصور النصرانية الأولى. وقد انتشرت الدعوة الإسلامية بوسائلها السلمية الخاصة، وكان ظفرها أعظم ما سجل تاريخ الأديان والعقائد. يقول المؤرخ فون جوت شميت: «إن الإقبال العام على اعتناق دين جديد على أثر فتح أجنبى، أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم، ولكن الإسلام يقف وحيداً فى هذا الفوز». ويقول دوزى: «إن هذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزاً غريباً، ولا سيما متى علمنا أن الدين الجديد لم يفرض فرضاً على أحد»[1]. والواقع أن الدعوة الإسلامية قامت منذ البداية على مبدأ التسامح واحترام العقائد والضمائر، خصوصاً إزاء اليهود والنصارى أعنى أهل الكتب

(١) Dozy: Essai sur l'Islamisme.

التى يقر الإسلام قدسيتها . وكانت النصرانية واليهودية فى الوقت الذى ظهر فيه النبى العربى ووثب الإسلام من الصحراء ، هما دين السواد فى كثير من البلاد التى فتحها العرب ، فكانت الجزية كل ما فرضه الدين الجديد على غير المسلمين ، للاحتفاظ بحرية عقائدهم وشعائرهم . وكان هذا الامتياز مقصوراً على اليهود والنصارى بادئ ذى بدء ، ولكنه لم يلبث أن امتد فى زمن النبى ذاته الى أبناء أديان أخرى مثل قبائل البحرين وسوادهم من الزرادشتية . وفى عهد عثمان ثالث الخلفاء ، امتد هذا الامتياز الى بربر إفريقية التى فتحت فى عهده ، وشُبه البربر باليهود والنصارى والزرادشتيه فى التمتع بحرية الاعتقاد والشعائر نظير الجزية . والظاهر أن الوثنية كانت ما تزال تسود يومئذ قبائل البربر ؛ وكانت الوثنية بلا ريب دين البربر قبل الفتح الرومانى ، ولكن رومة فرضت النصرانية منذ الفتح على البربر فغلبت على سكان إفريقية منذ القرن الرابع . والظاهر أيضاً أن كثيراً من القبائل كانت لعهد الفتح الإسلامى تدين باليهودية (١) . وعلى أى حال فقد شملت سياسة التسامح الدينى كل الشعوب المفتوحة ، وكانت منها مجتمعات كثيرة تدين بالشعائر الوثنية . يقوله العلامة جولدسهر : « سار الإسلام ، لكى يصبح قوة عالمية ، على سياسة بارعة . ففى العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً ؛ فان المؤمنين بمذاهب التوحيد ، أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية ، كان فى وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية ؛ ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ الى أعماق أرواحهم ، وإنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية . بل لقد ذهب الإسلام فى هذه السياسة الى حدود بعيدة ؛ ففى الهند مثلا كانت الشعائر القديمة تقام فى الهياكل والمعابد فى ظل الحكم الإسلامى » (٢) . وينوه دوزى بأهمية هذا التسامح فى حديثه عن فتح الأندلس ويقول : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين ... ولم يغمط النصارى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧

(٢) Goldziher: Die Religion des Islams (die Religionen des Orients) s. 106

للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الحرمان والفرنج »[1] . والخلاصة أن التسامح الدينى كان أصلا ثابتاً من أصول السياسة الإسلامية ، يرجع الى عصر النبى ذاته ، وقد دفع فيما بعد الى حدود لعلها جاوزت ما كان يراه النبى وخلفاؤه الأوائل .

هذا التسامح وإن كان نسبياً معلقاً على افتداء الحرية الدينية بالجزية ، إلا أنه كان ظاهرة جديدة فى عصور سودت صحفها سير الاضطهاد الدينى ، وفيها كانت تضطرم الخلافات والمعارك الدينية فلا تخمد إلا فى سيول من الدماء ؛ وكانت الدولة تملى دينها على الشعوب ، سيدة كانت أو مسودة ، ولا تقنع بالإيمان والشعائر اللفظية ، بل تدفع العسف الى أعمق ظروف الحياة الخاصة ، فضلا عن الحياة العامة . وقد عصفت هذه السياسة بمنعة الدولة الرومانية الشرقية أيما عصف ، وقوضت من هيكلها الإجتماعى أيما تقويض ؛ وكانت لها أيضاً آثارها المخربة الهدامة فى الدولة الفارسية . أما الدولة الإسلامية قد عرفت منذ نشأتها قيمة التسامح ، واستطاعت أن تغزو به قلوب الشعوب والطوائف التى أضناها عسف المطاردة الدينية فى ظل العهد القديم ؛ وكانت فضلا عن الاضطهاد الدينى تنوء بأعباء الضرائب والمغارم الفادحة ، ونزعات السلب والمصادرة التى ترتكب غالباً باسم الدين .

تقدمت الدولة الإسلامية إذن الى الشعوب المفتوحة بمزيتين أو نعمتين لم تعرفهما فى عهد الحكم السابق : الأولى نعمة التسامح والحرية الدينية ؛ والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة ، التى تفرض طبقاً لأصول وحدود معينة . وقد كان لهذا التسامح ، وهذه القناعة ، كما بينا ، أيما أثر فى تذليل سبل الفتح أمام العرب ، وفى اغتنامهم لعطف الشعوب المفتوحة ، بل فى اغتنام معاونتها الفعلية فى الوقوف الى جانبهم فى وجه الدولة الرومانية فى كثير من المواطن .

أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك : كيف ذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة ؟ ولماذا آثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الإعتقاد والضمائر أن تنزل عن أديانها وعقائدها لتعتنق دين الحكومة الجديدة ؟ وكيف استطاعت السياسة الإسلامية فى كثير من التسامح والرفق أن تخلق فى أقل من قرن أمماً إسلامية عظيمة

(١) Dozy: Hist. des Musulmans de l'Espagne II, p. 41 - 43

فى فارس والشام ومصر وإفريقية واسبانيا ؟ كانت هذه الظاهرة العجيبة نتيجة لعدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ، أملت على حكومة الخلفاء سياستها نحو رعاياها الحدد ؛ وكان للأطماع الشخصية ، والحرص على المكانة الاجتماعية ، فى خلقها نصيب أيضاً ، بل سنرى أن حدوثها بتلك السرعة لم يكن دائماً متفقاً مع مصالح الخلافة المادية . ذلك أن تسامح الحكومة الإسلامية كان قاصراً على حرية الضمائر والشعائر ، ولم يكن يشمل فى حياة الفرد ، كل مظاهرها الاجتماعية والمدنية . كانت الطوائف غير المسلمة تعتبر دائماً فى نظر المجتمع الإسلامى ، منحطة من الوجهة الاجتماعية ، وكانت من أجل ذلك لا تلقى فى ميادين الحياة العامة ما يلقاه المسلمون من الرعاية والاحترام والعزة . وترجع هذه التفرقة الى عصر الإسلام الأول ؛ وكانت تفرقة رسمية تقررها الدولة وتقصد إليها . وكان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء ، أول من صاغ هذه السياسة نحو الذميين (غير المسلمين) فى تشريع وأوامر خاصة كانت مصدر هذا النوع من التشريع فى الدول الإسلامية ؛ وكانت تختلف باختلاف الظروف ليناً وشدة . وخلاصتها أنه لا يسمح للذميين ببناء كنائس أو بيع جديدة ، أو إعادة بناء ما تهدم منها ، أو يرفعوا الصلبان فوق الكنائس ، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق أو الأماكن العامة ، وألا يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس إذا كانت واقعة فى حى إسلامى ، وألا يوقدوا الشموع ، وأن يلزموا السكينة فى الجنائز إذا مرت بأحياء إسلامية ، وألا يحاولوا تنصير مسلم ، أو يحولوا دون إسلام نصرانى ، وأن يحافظوا على مراسيم الخضوع والاحترام للمسلمين فى المواكب والمحافل العامة ، كألا يجلسوا فى حضرة مسلم إلا إذا أذنوا ، وألا يلبسوا أزياء المسلمين ، بل يتخذون أزياء وألواناً خاصة ؛ كذا كان يحظر عليهم أن يتسموا بالأسماء العربية ، أو ينقشوا الأحرف العربية على أختامهم ، أو يستعملوا السروج أو يحملوا السلاح أو يسترقوا مسلماً . ومما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين : « أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضاً ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى ، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم »[1] .

(١) راجع طرفا من هذه الوثائق فى أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ، وخطط المقريزى (بولاق) ج ١ ص ٧٦ ، وفى ج ٢ ص ٤٩٤ ، وص ٤٩٨

كانت هذه التفرقة الرسمية تخلق من الطوائف غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية مجتمعاً آخر ، ذا حياة ونفسية ونظم اجتماعية خاصة ؛ تنظر إليه الحكومة الإسلامية ، وينظر إليه المسلمون بعين غير تلك التى ينظرون بها إلى أبناء دينهم . وكانت هذه الأحكام الخاصة بغير المسلمين تطبق فى العصور الأولى فى رفق ولين ؛ وكان حكام النواحى والسلطات المحلية أكثر تسامحاً ورفقاً فى تطبيقها من السلطة المركزية ، وكثيراً ما عقد الذميون مع حكام النواحى معاهدات محلية للتخلص من هذه الأغلال والفوارق الإجتماعية المهينة . ومع ذلك فقد كان مركز الذميين من النصارى واليهود ، فى الدول الإسلامية ، دائماً منحطاً من الوجهة الاجتماعية ؛ وهو يشبه من وجوه كثيرة مركز اليهود فى الأمم الأوربية فى العصور الوسطى ، بل فى عصرنا هذا فى بعض الأمم التى تضطرم أحياناً بنزغة الخصومة السامية (١) . وكانت وطأة هذه التفرقة تشتد بالذميين ، ولا سيما النصارى ، فى كثير من المآزق والأزمات السياسية ؛ وقد تنقلب أحياناً الى مطاردة عنيفة تسام فيها الكنيسة والنصارى ألواناً من القمع والاضطهاد والذلة . وكان الذميون فوق ذلك موضع التوجس والريب من السلطات الحاكمة ، وقلما كانت الحكومات الإسلامية الأولى تجيزهم الى وظائف الدولة ، اللهم إلا أعمال المحاسبة والحباية حيث كانت لهم فيها براعة خاصة ، أو ترفعهم الى مراتب النفوذ والثقة ، أو تعهد إليهم بالمهام الخطيرة ، أو تأتمنهم على مصلحة ذات شأن . فليس غريباً إذاً أن يتوق الذميون فى تلك العصور الى التحرر من أعباء هذا النظام ووصماته ، وأن يؤثر الأذكياء والطامعون منهم ، اغتنام كل ما ينعم به المسلم من المزايا الاجتماعية والاقتصادية باعتناق الإسلام ، وأن يشقوا لأنفسهم الى الحياة سبلا طيبة باهرة بالاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأن يتمتعوا خلال ذلك كله بنعمة الحرية الفكرية التى كانت من أسمى ظواهر الحياة الإسلامية . ولم يكن دخول الذمى فى الإسلام يفضى دائماً لأول وهلة الى تمتعه بكل ما يتمتع به المسلم من الحقوق والمزايا . بيد أن اعتناق الإسلام كان أول خطوة فى تحرره من الأعباء المرهقة والتقاليد المزرية والعرف المؤذى . وإذا كان الجيل الأول من الذميين الداخلين فى الإسلام يلقى صعاباً فى سبيل الإندماج التام فى المجتمع الإسلامى ، أو الفوز

(١) مثل ألمانيا ورومانيا والمجر .

العاجل بكل ما ينعم به المسلم الموئل من صنوف التجلة والإيثار ، أو اغتنام عطف السلطات الحاكمة وثقتها ، فقد كان الزمن وحده كفيلا بمحو هذه التقاليد وإزالة هذه التفرقة ، وإدماج أبناء الوطن الواحد فى مجتمع واحد . وكان تعاقب الأجيال والذرية وحده سبيلا الى النسيان ورفع أبناء الذين أسلموا الى صف المسلمين القدماء. هذا الى أن عقبهم كانوا ينتحلون الأنساب العربية، فيرجعون ألقابهم وأنسابهم الى أصل من الأصول العربية المعروفة، لكى يقضوا بذلك على آخر الآثار والذكريات التى قد تشوب مركزهم الاجتماعى ، بعد أن دخلوا فى حظيرة الإسلام، وغدوا مسلمين خلص أوفياء .

وقد كان فوز الإسلام فى الشام ومصر أسرع وأيسر منه فى أى بلد آخر من البلاد المفتوحة . وكانت النصرانية قد سادت مصر والشام لعهد الفتح الإسلامى ، ولكنها فرضت عليهما بالنار والسيف، وسرى الخلاف غير بعيد الى أصولها ومبادئها ، فاضطربت أسسها ووهنت عقائدها ، وتعددت الطوائف والمذاهب ، واضطرمت بينها الخصومات ، واشتد العسف والإرهاق ، فسادت الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ ولم يكن فى أصول الإسلام ما يحفظ القلوب المؤمنة ، وكانت خصومته للعقيدة النصرانية رفيقة لينة . وكان فوز العرب فى اجتياح العالم القديم بسرعة مدهشة آية قوته ورجحان دعوته ، كما أن ما اقترنت به سياسة الفاتحين من ضروب العدالة والرفق والعفة والزهد ، كان حجة ناهضة على جور الحكومات النصرانية فى تلك العصور ، وعلى أن الكنيسة لم تكن رمزاً صحيحاً لمثل العدالة والإخاء . ألم تكن هذه كلها شواهد قاطعة عميقة الأثر على أن الدين الجديد أجدر بالاتباع ، وأنه وهو الظافر ، دين الحق ؟ كان طبيعياً أن تطبع هذه الظواهر روح التفكير فى هذا العصر ، وكان الإيمان بالمعجزات سلاحاً مسموماً ارتد الى صدر الكنيسة، فانه لم تحدث معجزة ترد عادية الإسلام عن النصرانية ، ولم تنقض الصواعق على تلك الجيوش المظفرة التى اجتاحت سواد العالم القديم فى زهاء جيل فقط .

وكذا كان ظفر الإسلام سريعاً فى باقى الأمم المفتوحة . وفى ذلك يقول الفيلسوف شليجل : « نستطيع أن نبحث دين العرب الجديد وفتوحهم على ضوء هجرة جديدة للأمم ، فان قسما كبيراً من الأمة العربية هاجر الى اسبانيا . وأحدثت

هذه الهجرة العربية فى آسيا وإفريقية انقلاباً خطيراً فى السلطان واللغة والحلال والأنظمة السياسية ، أعظم وأشد من ذلك الذى أحدثته غزوات القبائل الجرمانية فى أوربا »[١].

ولكن هل كان انتشار الإسلام بتلك السرعة الخارقة بين أبناء الشعوب المفتوحة متفقاً دائماً مع سياسة الخلافة ومثلها ولا سيما بعد أن استحالت الى ملك سياسى ؟ الظاهر أنه لم يكن كذلك فى كثير من الأحيان ، بل لقد كان بالعكس يضر بمصالحها المادية أكبر الضرر ، حتى أنها منذ العصر الأول — عصر الدعوة والفتوة الدينية — لم تكن تشجع هذه السياسة . ولذلك تعليل ظاهر . فقد كانت موارد الحكومة الإسلامية من الجزية والمغارم المختلفة التى تفرض على الذميين ، عظيمة فادحة ؛ وكانت هذه الموارد تتأثر كلما حدثت وثبة عامة من شعب مفتوح لاعتناق الإسلام . ولم يكن هذا الأثر عظيما بادئ ذى بدء ، لأن أغلبية الشعوب المفتوحة لبثت حيناً تؤثر التمتع بمنحة الجزية — أجل منحة الجزية أو نعمتها بالقياس الى ما كانوا يلقون من الحكومات الذاهبة — للاحتفاظ بدين الآباء والأجداد ، وإقامة الشعائر القومية . هذا الى أن الثروات الطائلة التى كانت تفيض على خزائن الحكومة الإسلامية من تركات الحكومات المغلوبة وأسلابها ، وأموال الأمراء والحكام والقادة والزعماء المغلوبين ، وفدى الأسرى ، كانت أكثر من أن تعوض على الخلافة فى عصرها الأول ، ما كانت تخسر من آن لآخر باقبال جمهور الذميين على اعتناق الإسلام ، تحرراً من الجزية وما إليها من الفروض والأعباء .

ونستطيع أن نكون فكرة عن موارد الخلافة من الجزية ومختلف المغارم والثروات التى كانت تحصل من البلاد المفتوحة ، بما تذكره الرواية العربية فى فتح مصر ، من أنه لما صالح عمرو بن العاص القبط على أن يدفع كل رجل منهم جزية قدرها ديناران ، بلغ من وجبت عليهم الجزية السنوية ستة آلاف ألف نفس ، أو ثمانية آلاف ألف على رواية أخرى ، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبى . فكان دخل الخلافة من ذلك اثنى عشر مليون أو ستة عشر مليون دينار فى العام[٢] .

---

(١) Fr. von Schlegel; ibid; Kap. XII.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠ ، ٨٧ وهى رواية ظاهرة المبالغة إذ يجب أن يكون سكان مصر وقت الفتح على هذه النسبة نحو خمسين مليون . على أن هذا الاحصاء يقدم لنا على أى حال فكرة عن فداحة الدخل الذى كانت تقتضيه الخلافة من الجزية السنوية .

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 058348960
DS58
.3
.I52
1952
RECAP